﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾

[الأحقاف: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أشـدُّ أنـواعِ الإيـلامِ تـبرُّؤُ المَعبودينَ مِن عابدِيهم يومَ القِيامة

بعدَ أن أبانَ النَّظمُ الكريمُ حالَ المُشركينَ في الدُّنيا معَ مَعبوداتِهم الباطلةِ، وأنَّهم لا يَستجيبونَ لَهُم عندَ دُعائِهم لهم، ولا يَعقِلونَ مِنهُم ما يَطلبونَهُ مِنهم؛ أبانَ النَّظمُ الكريمُ عن حالِهم في موقِفِ الآخرةِ، وعندَ الحَشْرِ للأمواتِ والنَّشرِ ليومِ الحِساب أيضًا؛ إذ يَتبرَّؤونَ منهُم، ويُعلِنونَ العَداوةَ لهم، ويَجحدونَ عِبادتهُم لهُم، ويُنكِرونَها، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُشِرَ﴾: (حشر) تدور اشتقاقاتُه على مَعْنى السَّوقِ والبَعْثِ والانبِعاثِ، وكُلُّ جَمْعٍ: حَشْرٌ[2]، ويقال: حَشَرتْهُم السَّنةُ: وذلك أنَّها تضُمُّهم من النَّواحي إلى الأمصار[3]، ولا يُثنَّى، ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه مصدرٌ في الأصل، ويُقال: حَشَرَ اللهُ الخَلْقَ حَشْرًا، أي: بعثَهم، وساقَهُم مِن مَضاجِعهم[4]، ومن هذا البابِ: يومُ الحَشْر، ومن أسماء النَّبيِّ ﷺ: الحاشِرُ[5]، ومضارعُ حَشرَ: يَحْشِر ويحشُر بكسْرِ العينِ وضمِّها[6]، والمرادُ بهِ في الآيةِ: جمعُ النّاسِ للحِساب بعدَ المَوت.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 21.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (حشر).
(4) ابن القوطية، كتاب الأفعال: 1/ 231.
(5) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (3532)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2354).
(6) الجوهري، الصحاح: (حشر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العَداوةُ والجُحود نتيجتان للصُّدود

يذكر الله ﷻ أنَّه إذا قامتِ القيامةُ، وحُشِرَ النّاسُ، وجُمِعوا في صعيدٍ واحدٍ، واشتدَّ كَرْبُهم؛ كانت هذه المعبوداتُ أعداءً لمَن عَبَدوهم، وكانوا عليهِم ضِدًّا يُخالفونَهُم، ويُلحِقونَ بهِم الذُّلَّ والهَوان، بعدَ أنِ اتَّخذوهم في الدُّنيا؛ ليكونوا لهُم مَجْدًا وعِزًّا وذُخرًا، كما أنَّ العابِدينَ الضالِّينَ يُنكرونَ يومَ القيامةِ أنَّهم عبَدوا هذه المخلوقاتِ، ويزعُمونَ أنَّهم ما أشرَكوا باللهِ شيئًا، فَيجمَعونَ بينَ الشِّركِ باللهِ والكَذِبِ، وكلُّ ذلك لا يُغنيهُم مِنَ اللهِ شَيئًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ عطف الجملة بالواو:

عدمُ استجابةِ الدُّعاء تقترنُ بحال العَداء

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ﴾ على ما تقدَّمَهُ؛ لوجودِ تناسُبٍ واقترانٍ بينَ حالِ المُشركينَ ومَعبوداتِهم في الدُّنيا، وحالِهم معَها في الآخرة، معَ ارتباطِ عدمِ استجابةِ دُعائِهم في الدُّنيا وغفلتِهم عن مَقصودِه بحالِ العَداوةِ المُستشريةِ بينهما معَ الجُحودِ لتلك العبادةِ، وعدمِ قَبولِهم بها ورِضاهُم عنها، ووجَّه ابن عاشور العطف بقوله: "وعَطفُ جُمْلَةِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ ... الآية عَلى ما قَبْلَها؛ لِمُناسبةِ ذِكرِ يومِ القيامةِ"[2].

نكتةُ استعمال (إذا) دونَ (إنْ):

تأكيدُ حال العَداوةِ والتَّبرِّي وتحقيقُ وقوعِ الحَشْرِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ الشَّرط (إذا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ دونَ (إن) الشَّرطيَّة؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ جوابِ الشَّرط؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ عندَ الجزمِ بالوقوعِ بخلافِ (إن) الَّتي تكونُ غالبًا للشَّكِّ في وقوعِ مدخولها، ممّا يدلُّ على تأكيدِ حال العَداوةِ والجُحود بينَ المُشركينَ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 905.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 12.

ومَعبوداتِهم الباطلةِ، معَ تحقُّقِ الحَشْرِ الذي يُنكِرُهُ المشركونَ، وأنَّه أمرٌ واقعٌ لا محالةَ.

بلاغةُ التَّعبير بالحشْرِ دون الجَمْعِ:

الحشرُ جَمْعٌ وسَوْقٌ معَ قَسْرٍ وإكراهٍ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ فعلِ (الحَشْرِ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ دونَ فعلِ (الجمْع)؛ إذ لم يرد في النَّظم القرآني: (وإذا جُمِعَ النّاسُ)؛ لما يوحي به الحشرُ من جمعٍ للنّاسِ معَ سَوْقِهم لمكانٍ يُحشَرونَ فيه حشْرًا[1]، ولما في لفظ الحشر مِنَ الدَّلالة على القَسْرِ والإكراه، وهو أنسبُ للتَّخويفِ من يوم القيامَةِ؛ ولذا قال البقاعيُّ مفسِّرًا المرادَ بـ﴿حُشِرَ﴾، أي: "جُمِعَ بِكُرْهٍ على أيسَرِ وجْهٍ وأسهلِ أمرٍ"[2].

نكتةُ بناءِ فعلِ ﴿حُشِرَ﴾ للمفعولِ:

التَّأكيدُ على وُقوعِ الحَشْرِ وأهَمِّيَّتِه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المبنيِّ لما لَم يُسمَّ فاعلُهُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ للاهتمامِ بوقوعِ الحَشْرِ وتحقُّقِه وما يترتَّبُ عليه مِن عَداوةٍ بين الأصنامِ وعابديها دونَ التَّنبيه إلى فاعِلِ الحَشْرِ؛ لأنَّ محطَّ الإنكارِ هو وقوعُ الحشر، فيكونُ ذِكرُهُ ردًّا على مُنكريه، وأمّا الحاشِرُ؛ فمعلومٌ وهو اللّه ﷻ.

كما توحي صيغةُ البناء للمفعولِ بوقوعِ فعلِ الحَشْرِ على جميعِ النّاسِ مِن غيرِ التماسٍ مِنهم بتأخيرٍ أو قبولِ عُذرٍ لئلّا يُحشروا.

واختارَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ ذلك الأمرِ المُستقبليِّ، وأنَّه أمرٌ واقعٌ، بل كأنَّهُ وقعَ، وانقضَى.

دلالةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دونَ (العِباد):

كلُّ مَنِ اتَّصفَ بالنَّوسِ - وهو التَّحرُّكُ - مَحشورٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ المَحشورينَ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ دونَ لفظِ (العِباد) مثلًا، فلم يرد في

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 128.

البيان القرآني: (وإذا حُشر العبادُ)؛ وذلك لإرادَةِ العُموم الذي تُنبئُ عنه (الـ) الاستغراقيَّةُ أوِ الجنسيَّةُ، أي: "كلُّ مَن يصحُّ منهُ النّوسُ، أي: التَّحرُّكُ"[1]، بخلافِ لفظِ (العباد) الذي يُشير إلى العابدينَ دونَ غيرِهم، فيكونُ الحشرُ مُتحقِّقًا لكلِّ مَن اتَّصفَ بالحركَةِ، سواءٌ أكان ذلك من الجنِّ أم الإنسِ أم البهائم، فلا يشذُّ مِنَ الحشْرِ فردٌ، ولا يَغيبُ عنهُ إنسانٌ مَهْما عَلا قَدْرُهُ، أو عَظُمَ شأنُهُ.

دلالةُ استعمالِ فعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾:

تمكُّنُ العَداوةِ دليلُ عِظَمِ الغَوايَة

اختارَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾ جوابًا للشَّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾، دونَ أن يرد في البيان القرآني: (وإذا حُشر الناس عادَوهُم)؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ وصفِ العَداوةِ والبغضاءِ، واستقرارِها فيما بينَهم، حتى إنَّه ثبتَ لهم هذا الحالُ بمجرَّدِ وقوعِ الحَشْرِ، واتَّصفوا به اتِّصافًا مُستقِرًّا مُتمَكِّنًا لا يزولُ عنهُم بحالٍ.

تعيينُ مرجِعِ ضميرِ فعلِ ﴿كَانُواْ﴾:

العداوةُ بينَ الطَّرفينِ مآلها الخُسران، ونهايتُها الشَّرُّ

(الواوُ) في ﴿كَانُواْ﴾ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ راجعةٌ إلى ﴿ٱلنَّاسُ﴾، فيكونُ النّاسُ أعداءً؛ لما عبدوهُ، وأطاعوه من دونِ اللهِ سُبحانَهُ، ويجوزُ أن يكون الضَّميرُ راجعًا إلى المعبوداتِ الباطلةِ، عاقلةً كانت أو غيرَ عاقلةٍ، فالعاقلةُ تصدُرُ منها العداوةُ لعابِديها؛ دلالةً على التَّبرِّي منهُم وعدمِ رِضاهم بعبوديَّةِ المُشركينَ لهم مِن دونِ اللهِ، وغيرُ العاقلة إمّا أن يَمنحَها اللهُ تعالى شُعورًا بالعَداوةِ لهم، أو أن يدُلَّ لسانُ حالِها - بسببِ عدمِ شَفاعَتِها لهُم - على أنَّها عدوٌّ لهم كارهةٌ لعَمَلِهم[2].

ولا تنافيَ بين المَعنَيَين، فيكونُ الضَّميرُ صالحًا إعادتُهُ لكلٍّ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 178.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 21.

المَرجِعَين المتقدِّمين، وفي هذا إثراءٌ لِلمعنى، وتصويرٌ لِحالِ العَداوةِ والكُفرانِ مِنَ الطَّرفين[1].

مُحسِّنُ الجمعِ والتَّفريق:

تداخُلُ العَداوةِ والكُفرانِ مُصوَّرًا بأبْدَعِ بَيانٍ

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بأسلوبٍ بديعيٍّ، وهو الجمعُ والتَّفريقُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، فقد جمعَ النَّظمُ الكريمُ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: 5] بينَ الدّاعي العابدِ وغيرِ المُستجيبِ المَعبودِ، ثمَّ أعادَ الضَّميرين (الواو) و(هم) في قوله: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ على سبيلِ التَّفريقِ، قال ابن عاشور: "وَمِن بَديع تفَنُّنِ القرآنِ تَوزيعُ مُعادِ الضَّمائر في هذهِ الآيةِ مَعَ تَماثلِها في اللَّفظِ، وهذا يتدرَّجُ في مُحَسِّن الجَمْعِ مَعَ التَّفْريق"[2].

نكتةُ تقديمِ المتعلَّقِ ﴿لَهُمۡ﴾:

حَصْرُ العَداوةِ بينَ المُشْرِكين ومَعْبوداتِهم، وتَصْويرُ الخِذْلانِ الأعْظَمِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ تقديمَ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ وحصرِ العَداوةِ فيهم دونَ مَن سِواهُم، والإشارة إلى أنَّ حالَ العداوةِ بينَ الفريقينِ استحكَمَت، وانحصرَتْ فيهم، فلم تتجاوَزْهُم إلى غيرِهم، بأنْ يتبرَّأ الفريقان بعضُهما من بعضٍ، فالعابدونَ تنحصِرُ عداوتُهم في تلك المَعبوداتِ الباطِلة، وتلك المعبوداتُ تنحصِرُ عَداوتُها في أولئك العابدينَ، وهذا أعلى درجاتِ تصويرِ الخِذلان والشُّعورِ بالضَّياعِ والحِرمان.

وحرفُ الجرِّ (اللّام) في ﴿لَهُمۡ﴾ يدلُّ على الاختصاصِ، وهو يُقَوّي معنى التَّخصيص والحَصْرِ المتقدِّم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 13.

دلالةُ استعمالِ لفظِ العداوةِ ﴿أَعۡدَآءَ﴾:

العـداوةُ مُستلزمةٌ للنُّفورِ المقتضي للتَّبرِّي والتَّباعُد

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن حالِ التَّبرّي والتَّباعُدِ بينَ العابدينَ والمعبودينَ من دون اللّهِ بالعَداوةِ في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾؛ فإن كان الضَّمير للعابدينَ؛ فتصدُرُ منهم العداوةُ والكفرُ، وإنْ كان الضَّميرُ للأصنام؛ ففي النَّظم استعارةٌ، أو مَجاز مُرسَلٌ للضّارِّ"[1]، وإن كانَ الضَّميرُ للطَّرفين؛ فالتَّركيبُ إمّا على سبيلِ الكِنايَةِ، التي يُذكَرُ فيها المَلزومُ، ويرادُ منهُ اللّازم؛ إذ يلزمُ من وقوعِ العَداوةِ بينَهما التَّبرّي، وإمّا على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّة بأن شُبِّهت هيئةُ العابدينَ والمعبودينَ المَحشورينَ بهيئةِ جَيْشَيْنِ مُتعادِيَيْنِ يقفُ كلُّ واحدٍ منهُما موقفَ المُتباعِدِ عن الآخرِ، نافرًا منه، مُستعِدًّا لمُجابهتِه ومواجهتِه، والغرضُ مِنَ التَّشبيه بيانُ شدَّة النُّفورِ والتَّبرّي والتَّباعُدِ بينَهُما على أشدِّ ما يكونُ التَّباعُدُ، وعداوةُ غيرِ العاقل للعابدينَ مبنيَّةٌ على مُعتقَدِهم عقلَها؛ ليكونَ الجزاءُ من جنسِ سوءِ تقديرِهم.

وأوثِرَ لفظُ (الأعداء)؛ ليكونَ أنسبَ لِلَفْظِ (الدُّعاء)؛ لما بينهُما من سَجْعِ القَلبِ، وذلك في قوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 5]، فيكونُ ثَمَّةَ تنافُرٌ بينَ (دُعاء) و(أعداء) على مُستوى الصِّيغةِ والمآل.

الغرضُ من التَّعبير بـ ﴿أَعۡدَآءَ﴾ دونَ (عدوٍّ):

التَّصرُّف في الألفاظِ جَمْعًا وإفرادًا بما يُلائِمُ سِياقاتِها

جاء التَّعبيرُ بلفظِ الجمع ﴿أَعۡدَآءَ﴾ دونَ لَفظِ (عَدوٍّ) الَّذي يَستوي فيه المفردُ والجمعُ في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾؛ للدَّلالةِ على طرفينِ مُتنازعينِ بالعَداوةِ والتَّبرّي بجميعِ أفرادِهما، وهم العابدونَ الضّالّونَ والمعبوداتُ الباطلة، فيتحقَّقُ بلفظِ الجمعِ التَّوزيعُ بينَ كلِّ فردٍ من المشركينَ وفردٍ من تلك المعبوداتِ الباطلة؛ لما تقرَّر في القواعدِ: من أنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجَمْعِ؛ تقتضي القسمةَ آحادًا.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 26.

نكتةُ عطفِ الكُفر بالعبادةِ على ما قبلَها:

نـفـورٌ وتـبـاعُـدٌ
حـسّيٌّ وتـراشُـقٌ
وجحودٌ لسانيٌّ

عُطِفَت جملةُ الكُفرانِ بالعِبادةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ على جملةِ العَداوةِ قبلَها: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ لاشْتِراك الجملتين في الخبريَّة، ووجودِ تناسبٍ وتقارنٍ في الخَيالِ بينَ العَداوةِ والتَّبرِّي بين العابدينَ والمَعبودينَ، وبينَ الجَحْدِ لتلك العبادةِ والإنكارِ لها؛ إذ يرتبطُ في الذِّهن تبرُّؤُ الأتباعِ مِنَ المتبوعينَ بجحود عبادتهم إيّاهُم وخُضوعِهم لَهُم، فيكون بين الجملتين على هذا: توسُّطٌ بين الكمالَيْن، وأفادَ العطفُ ارتباطَ الإنكارِ اللِّسانيِّ بالابتعادِ الجِسمانيِّ بينَ الفريقين؛ إذ حالُ العَداوةِ والبغضاءِ تَقْتَضي التَّباعُدَ والنُّفورَ، وحالُ الجحدِ والكُفران للعبادةِ مُستلزمةُ التَّراشقَ اللَّفظيَّ بينَ الأتباعِ والمتبوعينَ.

سرُّ تكرارِ (كانوا) مع إغناءِ الأولى عنها:

تَجَلِّياتُ العَداوةِ
بـينَ المُـشْـركـينَ
ومَعْبوداتِهِم

كُرِّرَ فعل الكَونِ (كانوا) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ مع تقدُّمِ ذكرِهِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ للدَّلالةِ على تَحْقيقِ حالِ التَّمكُّنِ والاستقرارِ لكلٍّ من الأمرينِ على سبيلِ الاستقلالِ، فقد استقرّوا على صفةِ العَداوة والبغضاء، وتمكَّنَتْ منهُم خاصّيَّةُ الكُفرانِ والجَحدِ لتلك العِبادة.

والضَّمير في (كانوا) مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى المُشْركينَ من النّاس الذين يَجحَدونَ، ويَكفُرونَ بتلك العبادةِ، بزعْمِهِم أنَّهم إنَّما كانوا يَعبدونَ اللهَ تَعالى، وهذه المعبوداتُ وسائطُ فحسبُ، تُقرِّبُهم إليه زُلفى، ويحتمِلُ أن يكون مرجعُ الضَّمير المَعبوداتِ الباطلةَ التي تَجحَدُ عبادةَ هؤلاءِ العابدينَ لها؛ بأنَّهم كانوا يتَّبعونَ أهواءَهم وغُرورَهُم واستكبارَهم على دَعواتِ الأنبياءِ والمُرسَلين.

دلالةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾:

حَصْرُ الجَحْدِ بالعبادةِ مبالَغَةٌ في البَراءَةِ مِنْها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ المتعلِّقان بـ﴿كَٰفِرِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ وحَصْرِ الجَحْدِ والكُفران بعبادتِهم دونَ ما عداها؛ إذ هي محلُّ الإنكارِ ومَقصَدُ الخِطاب؛ إذ يفِرُّ المبعودُ بالباطلِ منها خَوْفًا من عظمةِ اللهِ تَعالى وجَبروتِهِ.

و(الباء) في ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ تَدُلُّ على الإلصاقِ، وفي ذلك بيانُ أنَّ الجَحْدَ كان للعِبادةِ وملازمًا لها لا يفارقُها.

بلاغةُ العُدولِ عَن (الدُّعاء) إلى (العبادة):

الـدُّعـاءُ هو العبادَةُ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن لفظِ (الدُّعاء) الواردِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾ [الأحقاف: 5] إلى لفظِ العِبادةِ في قولِهِ: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ دعاءَ تلك المعبوداتِ عبادةٌ لها من دونِ اللهِ تَعالى؛ إذ الدُّعاء هوَ العبادةُ[1]، فيكونُ ذكرُ الدُّعاءِ مَجازًا مُرسَلًا من قبيلِ ذكرِ الملزومِ وإرادةِ لازمِه، أوِ الجُزئيَّة لاشتمالِ العبادةِ على الدُّعاء، وعُدِلَ هنا عن الدُّعاءِ إلى العبادة؛ لأنَّ الدّاعيَ بالنَّفعِ والضُّرِّ من دون اللهِ مُعتقِدٌ مُشاركتَها الخالقَ في ذلك، فيكونُ بدعائِهِ منها عابدًا لها خاضِعًا مُطيعًا.

دلالةُ إضافةِ (العبادة) إلى الضَّمير:

زَيْـفُ عِـبـادَةِ المُشْركينَ

أُضيفَ لفظُ (العبادة) إلى ضميرِ العابدينَ أو المعبودينَ على الاحتمالينِ في مرجع الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ

(1) جاء في حديث النُّعمان بن بشير ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الدُّعاءُ هو العبادة»، رواه أحمد في مسنده، برقم: (18386)، والترمذي في جامعه برقم: (3247)، وأبو داود في سننه، برقم: (1479)، وابن ماجه، برقم: (3828)، ويُروى من حديث أنس ﷺ مرفوعًا بلفظ: «الدُّعاء مخُّ العبادةِ»، رواه الترمذي في جامعه، برقم: (3371)، وقال: "هذا حديث غريب"، ويُنظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته للألباني، برقم: (3003).

﴿كَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على العَهْد، وهي العبادةُ المعروفةُ التي كانوا يتوجَّهونَ بها إلى معبوداتِهم من دونِ اللهِ دُعاءً ورُكوعًا ونحوَ ذلك؛ لما تقرَّر من أنَّ الإضافة تنقسِمُ إلى ما تنقسِمُ إليه (الـ)، فكما أنَّ (الـ) ترِدُ للعهْدِ؛ فإنَّ الإضافةَ كذلك تَرِدُ لها.

وفي إضافةِ المصدرِ إلى الفاعل أوِ المفعول إشارةٌ إلى سرِّ كُفرانِ تلك العِبادة، وهي صدورُها من عابدٍ مُعتقِدٍ ألوهيَّةَ غيرِ اللهِ تَعالى، أو توجُّهُها إلى مَعبودٍ غير اللهِ سُبحانَهُ ممّا لا يضُرُّ، ولا ينفَعُ، فكان في الإضافةِ إيماءٌ إلى أنَّها ليسَتِ العبادةَ الحقَّةَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ دون (كفارًا):

العَداوةُ مُناسِبةٌ للمعبودينَ، والكفرُ مُنسجِمٌ بالعِبادة

لفظُ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ جمعُ (كافرٍ)، وهو جمعُ تصحيحٍ وسلامَةٍ، وقد جاء التَّعبيرُ به دون جمعِ التَّكسير (كفّار)، فلم يرد في النَّظم القرآني: (وكانوا بعبادتهم كفّارًا)؛ لأنَّ جمعَ التَّصحيح هو الأصْلُ في جَمْعِ الصِّفة؛ إذِ الصِّفة (كافر) تُشْبِه الفعلَ (يَكْفُر)، ومِن ثمَّ جُمعت على (كافرين)، وهذا يُفيد أنَّ جمعَ السَّلامة يُفيد مَعْنى الحدَثِ والوَصْف، وهو المقصودُ في الآية؛ إذِ المُراد بيانُ براءَةِ المَعبوداتِ الباطِلَةِ من عابِديها، بخلافِ جَمْعِ التَّكْسير (كفّار)؛ فإنَّهُ يَرِدُ غالبًا للدَّلالة على الذَّواتِ، كما أنَّ جمْعَ التَّصحيح في الآية أليَقُ بتَناسُبِ فواصِلِ الآي.

تنوُّعُ المجازِ بتنوُّعِ المُرادِ:

كُفْرُ المَعْبوداتِ حاصِلٌ بِلِسانِ الحالِ أوِ المَقالِ

إسنادُ الكُفر إلى المعبوداتِ الباطلة في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ - وهي ممّا لا يصحُّ منها إنكارٌ أو تكذيبٌ - محمولٌ على أنَّ كُفْرَهم بعبادتهم إنَّما هو بلسان الحالِ، فيكونُ ﴿كَٰفِرِينَ﴾ استعارَةً، ويجوزُ أن يكون ذلك بلسانِ المقالِ، بِحَمْلِ المعبوداتِ على عمومِ ما توجَّه إليهِ المشركونَ بالذُّلِّ والخضوعِ، مِنَ

الأنبياء والصّالحينَ والملائِكَة والأوثانِ، فجاء البيانُ القرآنيُّ على إرادةِ التَّغليبِ[1]، والمرادُ تغليبُ المَعبوداتِ العاقلةِ على الأصنامِ.

نكتةُ إيثارِ اسمِ الفاعلِ على الفعلِ:

شِـــدَّةُ تَـــبَرّي المَعْبوداتِ دليلُ حَسْرَةِ العابِدينَ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ صيغةِ اسمِ الفاعل ﴿كَٰفِرِينَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ دون الفعل، فلم يرد في البيان القرآني: (وكانوا بعبادتهم يكفرون)؛ للدَّلالةِ على مُلابستِهم وصفَ الكفرِ بتلك العبادةِ والإنكارِ لها على سبيلِ الدَّوامِ والاستمرارِ، بخلاف الفعلِ المضارعِ فإنَّه يدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، والدَّوام أبلغُ مِنهُ، فكان التَّعبير باسم الفاعلِ أدلَّ على شدَّة التَّبرّي.

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ:

تشبيهُ المَعْبوداتِ الباطِلَةِ بالأعداءِ إظـهـارٌ لـخَـيْـبَـةِ عابِديها وتَنكيتٌ لَهُم

أُسنِدَتِ العَداوةُ والكفرُ إلى المبعوداتِ الَّتي لا تعقلُ في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، وهذا إمّا بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى خاطَبَهم بذلك؛ لأنَّهم اعتقدوها عاقلةً، وإمّا أنَّ ذلك كانَ بلسانِ الحالِ أوِ المقالِ، وقد جوَّزَ ابنُ عاشور أن يكون في إسنادِ الخبرينِ لـ(كان) تشبيهٌ بليغٌ؛ وذلك لتشبيه المعبوداتِ بالأعداءِ والمنكرينَ العبادَةَ في دَلالتِها على ما يُؤدّي إلى شَقائِهم وكذبِهم[2]، والغرضُ من التَّشبيهِ بيانُ أنَّ المعبوداتِ التي عُبِدت بالباطِلِ لم تزِد عابديها إلّا خسارًا وتبارًا، كما أنَّ العدوَّ لا يزيدُ عدوَّهُ إلّا تدميرًا وهلاكًا.

بلاغةُ إيثارِ أسلوبِ الشَّرطِ:

تَصويرُ حَتميَّةِ تَبَرّي المَعْبوداتِ بالباطِلِ وخَيْبَةِ عابِديها

اختارَ النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾؛ لتحقيقِ التَّعلُّقِ بين مضمون الشَّرطِ ومضمونِ الجزاءِ، وذلك لأنَّ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 456.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 12.

الشَّرطَ أدلُّ على ذلكَ مِنَ الإخبارِ المحضِ، فكان في الآيةِ تأكيدٌ بليغٌ على تبرّي المعبوداتِ مِن عابديها في أعلى درجاتِ التَّبرّي.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الحَشْرُ والجَمْعُ:

الحشْرُ هو الجَمْعُ معَ زيادةٍ، وتلك الزّيادةُ تكونُ بالسَّوقِ للمَجموعينَ سَوْقًا قَهْرِيًّا؛ ولذا ذكر أبو هلالٍ أنَّ الحشْرَ جمعٌ مَع سَوْقٍ، ومِنْهُ قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36]؛ إذ المعنى: ابعَثْ مَن يجمع السَّحرة، ويسوقُهم إليك، ومِنهُ سمّي يوم القيامة: يومَ الحشرِ؛ لأنَّ الخلائق يُجمعون، ويُساقون إلى الموقفِ[1].

الحشْرُ أخصُّ مِنَ الجمعِ مُطلقًا

كما يشتملُ الحشرُ على دلالةِ الحَشْدِ الكثيرِ للمجموعينَ، حتى كأنَّهم يُحشَرونَ في مكانٍ ضيِّق، كما أنَّ في الحَشْرِ إخراجًا للمَجْموعينَ من مكانٍ وسَوْقِهم إلى مكانٍ آخرَ، بخلاف الجَمْعِ؛ فإنَّه لا يقتضي الإخراجَ من مكانٍ إلى آخرَ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"